(٢)

اللغة والأسلوب الجديد عند جويس

كان جويس من شوامخ أعلام البيان في الغرب قديماً وحديثاً، بل علم البيان والفصاحة والبلاغة ، وإمام اللغة في النصف الأول من هذا القرن العشرين ، ولم يبلغ شأوه كاتب ناثر في إحدى اللغات الأوروبية ، ويمكن مقارنة بعض الفصحاء به في عرض التدليل على قدرته ، فنذكر في الأقدمين هومير وفرجيل ورابليه وفي المحدثين جوته وشيلر وفولتير وأصحاب المعلقات والجاحظ عند العرب ممن ملكوا زمام لغاتهم ، لأن جويس كان يكتب ويروض الألفاظ ويطوعها فيقرنها الى نير الفكر ويخضعها ويحسن تكييفها ، ويخزها ويهمزها حتى تلين وتطيع ، ويكرهها حتى تخضع لأشق أعماله وأخطرها وأندرها ، والعمل الشاق هو التعبير الدقيق فإن أعوزته ألفاظ للدلالة على معنى دقيق فإنه يسك الألفاظ ويضربها كما تسك النقود وتضرب الدراهم فتخرج الألفاظ من مصنع فكره حاملة رسمه واسمه كما تخرج مسكوكة بأسماء الدول ولكنها

الدنانير ٠

وكان من الكتاب من يحفر بلاط الغرفة بقدمه أثناء البحث عن اللفظ وتطويعه وسبكه وإدماجه وصفه ، وتفريفه وتنزيله وتركيبه ، كتنزيل الصدف والفسيفساء وتركيب فصوص الجواهر فى الحلى ، وممن اشتهروا بهذا جوستاف فلوبير ، ولا سيما فى كتاب «سلامبو» الذى بعثت به دولة قرطاجنه « القرية الحديثة » بعد أن اندثرت وفنيت ، ولم يتبق بعد عينها أثر ٠

أما جويس فكانت معاناته باطنية ، لاتظهر للأعين ولا يشعر بها أحد من معاشريه ولا تكدر صفوه أو صفو أهله وخلانه كالإلهام ينزل عليه فى أى وقت من أوقات الليل والنهار ويواتيه فى هدوء وسلام حتى صك ألفاظاً جديدة تحمل اسمه وطابعه وتنطق بشخصيته حتى استغنى عن أوائل الأسطر وعلامات الوقف والوصل والفصل والاستفهام والتعجب ، وهى الأدوات التى لايستغنى عنها كاتب أو قارىء حتى تكون صفحات من كتابه كأنها صفحة مكتوبة بالكوفى القديم ، مبهمة غير معجمة ، كما صنع فى صفحة ٣٦٥ وما بعدها ، فى وصف مستشفى الولادة ٠

وإنك على هذا كله تفهم وتدرك ولا تتلعثم ولا تتوقف ، ثم

تساءل نفسك فيم ولم اخترع الناس تلك العلامات التى لا لزوم لها ولا ضرورة ، بدلاً من أن نقول كيف ولم استغنى هذا الكاتب عن تلك العلامات وهى من ألزم اللزوميات للفهم ؟ ، وهكذا فعل فى مناجاة زوجة بلوم التى ذكرناها وفى فصول أخرى كثيرة .

مع هذه الثقة بالنفس والتمكن الذى لا يدانيه تمكن ، لم يكن يظن أنه بلغ الغاية وأوفى على النهاية ، ولم يكن دعياً ولا ثرثاراً ، ولا مادحاً نفسه ولا معجباً بفنه ، ولا مباهياً بسعة اطلاعه ، بل كان يرمى أبداً الى الإحسان وينظر الى عمل أمس بعين السخط حتى ينتهى من عمل اليوم ، ويرمى الى غد ليبلغ الأمنية ، والكمال يجرى أمامه كالسراب ، ويداعبه حتى يوشك أن يبلغه .

ودليلنا على ذلك أنه بدأ بقصص « أهل دبلين » ثم صاغ «حياة الفنان فتى» ، وقد سلخ فيهما عشر سنين ، ثم تفرغ لعولس ، فقضى فيه خمس عشرة سنة من وقت التفكير فيه أو غرس البذرة الى تمام النضج وجنى الثمار ، أى من سنة ١٩٠٦ الى سنة ١٩٢١، ولكن السنوات التى طواها فى التأليف كانت سبعاً من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩٢١ أى بعمر الحرب الكوكبية الأولى ، وقد تنقل خلالها بين مدن شتى منها تريستا وزوريخ وباريس ، ومعنى هذا أن

فنه شغله عن أحداث الحرب العالمية أو أنه اعتبرها ظاهرة طبيعية ونتيجة حتمية لخطة المظالم التى سادت وتحكمت .

وبعد أن نشر كتابه ، لم يهدأ ولم يسكن ، وقد ضعف بصره، وتحمل عشر عمليات جراحية فى عينيه فى مدى ثمانية أعوام ، ولكنه داوم العمل ونهج نهجاً جديداً فى التأليف ، فوضع خطة لتأليف كتاب فى نهضة الجماعات والأبطال أمثال قيصر ونابوليون ، وفرغ من قصته « فينا جوس ويكس » و« أنا بيلا ذات الأنهار» وقد قرأت الكتاب الأخير وفيه اسم مائة وخمسين نهراً فى أنحاء العالم حشدها فى بضع وعشرين صفحة ، كما جمع أوسكار وايلد أسماء الأحجار الكريمة فى دوريان جراى .

ونعنى بهذا الاجتهاد والدأب ، وقد شارف على الستين من عمره (سنة ١٨٨٠- سنة ١٩٤١) ، أن جويس كان من القائلين مع الناقد الفرنسى الكبير اميل فاجيه «الغافل منا نحن معشر الأدباء ، من يظن أنه بلغ الذروة ، وأن آراءه وثمار جهوده مؤكدة الخلود والدوام » .

قيل إن جويس كان يحب النبيذ ولا سيما الأبيض الخفيف منه ، وتلك خلة ورثها عن والده ، وهناك صلة أخرى بينه وبين بنت

الكروم غير شرابها ، فكما يشقى العنب ، فينزع عن صدر أمه ، ثم يعصر ويكبس وقد يداس بالأقدام ، ويغلى فى الخوابى محنقاً مغيظاً محترقاً من ألم النار اللاذعة ليرقد خمراً هادئة فى الدنان والطاسات والأقداح ، كذلك حظ الكتاب والشعراء ، وكذلك جويس ، نزع من أحضان أمه الحنون ، ثم خرج من أرض وطنه ، وهام على وجهه فى القارة الأوروبية ، غريب الوجه واليد واللسان ، وأصابته الفلاكة وأدركته حرفة الأدب وطارده الضنك ، ولحقه الجوع والعرى حتى كان يرقع سراويله وهو موظف برومة ، ولايخلع سترته لئلا تظهر عورته ، ويبيت على الطوى ، ويجوب الطرق ليلا ونهاراً على قدميه سعياً فى طلب الرزق القليل بمحض كده ، وهو يعول أسرة فيها زوجة فاضلة وأطفال رضع كزغب القطا .

وهذا كله بمثابة العصر والهصر والكبس والدوس والدهس تحت الأقدام والغليان فى القدور فوق أتون الحياة وحر نارها اللاذعة المحرقة ، حتى ذاب ونضج وطاب فلم يخرج ذلك الكتاب بل كان هو الخمر التى أعدت للشراب .

ففنه إذن ذوبان روحه ، وأدبه عصير عقله ، ولم يبق بعد إلا صورة اللحم والدم وهى تفل العنب وحثالة العنب التى يلقى بها ،

وهكذا تحطم الهيكل الانسانى كما رأته ووصفته لنا السيدة استر۰ا۰د فى شوارع زوريخ سنه ١٩٣٩ ، كفيفا تقوده إحدى كريماته ، كما كانت انتيجون تقود والدها أوديب فى خرائب كولون بعد كارثته ٠

أليس لكل عبقرى مأساة يغزل القضاء خيوطها ، وتنسج الأقدار سداها ولحمتها ؟ لقد كانت حياة هذا الأديب العظيم عملا دائباً ، وحركة دائمة ، ومعاناة مستمرة وكان يعتبر العالم كله وطنه والناس كلهم إخوانه وأبناءه ، نشأ فى ايرلاندا وطاف بلندن وباريس وروما وأقام فى تريستا وزوريخ واحتضنت امريكا أدبه وفنه وحكم قضاؤها بوجوب نشر كتابه الأكبر وحافظت محاكمها على حقوقه فى تأليفه ، فذاق حلاوة العدل والرحمة من سنة ١٩٣٤ الى سنة ١٩٤١ ، أى بعد أن جاوز الخمسين من عمره ، ولم يمت بغيظه وكمده كما مات قبله مئات من النوابغ فى أنحاء العالم ٠

وقد حارب أثناء حياته الظلم والعسف والشر ، ونصر الحق والعدل ، ودافع عن وطنه وقومه ، ووقف فى وجه دولة عظمى كانت منفردة بالجبروت ، وحاز قصب السبق فى اللغات والآداب والفنون ، واستخدم علمه وأدبه وفنه فى نصرة مبادئه مضحياً بكل شىء ٠

أى نعم بلى ! كان جيمس جويس كاتباً أديباً شاعراً ناثراً مفكراً مؤلفاً، منقطعاً لفنه مقدساً لأدبه ملازما لمحرابه عابداً زاهداً، عاكفاً على قبلته، قائماً يقظان، لحفاظ تراث لغته ولغة أعدائه .

أعرض عن اللغة الأيرلندية القديمة وهى أعز لسان عليه لأنها رمز قوميته ، وأقبل على الأنجلو سكسونية ، لا حباً بها ولا تمجيداً لها ، ولا بغضاً لوطنه ولا حباً بالمستعمرين المحتلين الطغاة ، ولكن خوفاً علي ايرلاندا إن هى بالغت فى إحياء لسانها القديم الميت ، أن تنقطع الصلة بينها وبين الحضارة الحديثة وبين الناطقين بالانجليزية وهم أربعمائة مليون من الخلائق فى الجزر وأمريكا واستراليا وزيلاندا وشرقى افريقيا وجنوبها .

وهو يحب لوطنه مسايرة الحضارة لا الوقوف والجمود ، والفرح بالحرية السياسية والاستقلال الذاتى ، ثم المخاطرة بأن تمسى آسنة متعفنة كالغدير الراكد أو الجيفة المنتنة .

والبرهان على وطنيته الحارة المبكرة أنه مذ كان فى التاسعة من عمره ، وشهد خيانة توماس هيلى لزعيمه بارنيل ، نشر كتيباً عنوانه « حتى أنت يا هيلى » دافع فيه عن الزعيم الأيرلندى الكبير بارنل واتهم فيه هيلى بالخيانة الوطنية لإسقاط الزعيم ، ولم يخل

كتابه عولس من النزعة الوطنية ، فذكر اسم بارنيل وقرنه بالتمجيد مرات ، وسجل ماذاع عنه من الأساطير التى تلت وفاته ، فمن المخلصين له من قال إنه لم يمت وأنه حى يرزق وسوف يعود الى وطنه ، ويعلى شأنه ويتم نعمة الحرية عليه .

وذكر جريفيث زعيم الشين فين وغيره من المعاصرين ، وشاد باسم « توم كيتل » أستاذ الأدب بجامعة دبلين ، وكان سياسياً ايرلندياً يرجى له مستقبل مجيد بأن يخلف بارنل ، لولا أن أدركته المنية وهو يقاتل فى الحرب العالمية الأولى فى صفوف الانجليز جرياً وراء وعدهم لريدموند زعيم الحزب الوطنى الأيرلندى بأنهم يردون لأيرلندا حريتها بعد انتصارهم على المانيا ، وكان وعدهم كذبا ومينا، وعهدهم خبثاً وغدراً ورياء .

وقد أفرغ جويس جعبة تهكمه ونثر سهام سخريته على الانجليز ، وناصب ملوكهم العداء ، وفضح بعض ساستهم وسفرائهم فى قصة أهل دبلين ، The Dubliners وفى عولس ، وذكر الملكة فيكتوريا والملك ادوارد السابع جهاراً فى مواطن لا تليق بمقام الملوك فى حياتهم ، ولكنه حاكمهم بعد موتهم وبعد أن صاروا فى ذمة التاريخ ، فلما رفض الناشرون والطباعون جمع أحرفها

وكلماتها جبناً وهلعاً ورياء ، كتب لكاتم أسرار البلاط الملكى يستأذنه فى النشر فأجابه الأمين الأول فى بلاط جورج الخامس بما يرضيه ويقنعه ، وبعد أن تألب عليه رجال الدين والحكم والمال وجمعية البنائين الأحرار وحاربوه بأسلحتهم ، فاز فى النهاية بنشر كتابه .

وإذن لم يكن عنصر الوطنية ينقصه أو يعوزه ، ولكنه كان يخشى إحياء اللغة القديمة على حياة الأمة وتعطلها وتأخرها وتقهقرها وجمودها .

أما انقطاعه لفنه ، وتقديسه لأدبه وقدرته على حجب شعوره وحجز إحساسه عن العالم الخارجى ليستكمل صناعته ، ويعطيها حقها الأعلى ، فمتجلية فى حجزه باختياره على نفسه وتقييد عواطفه ، فلم يشترك فى الاكتراث للحرب العالمية الأولى، لأنه بدأ فى أول أعوامها بتأليف « عولس » وانتهى منه بعد نهايتها بقليل ١٩١٤ - ١٩٢١ .

فيبدو للجاهل والحاسد والحاقد والغر الغافل ، أنه محجوب الحساسية الاجتماعية ، وأنه لا يشارك قومه ولا غيرهم فى صغيرة ولا كبيرة مما حدث حوله فى تلك السنوات السبع حتى إنه لم

يكترث لمصرع سيركيزمنت الايرلندى الوطنى، أحد سفراء بريطانيا فى المانيا وقد حوكم فى يوليو سنة ١٩١٦ فى لندن وحكم عليه بالإعدام ، بعد أن دافع عن نفسه دفاعاً بليغاً مجيداً ، وكانت تهمته أنه حاول إنزال أسلحة وذخيره ألمانية على شاطىء ايرلاندا نجدة ومدداً للثائرين وهو موظف بريطانى .

وهذه حادثة كان يتسع لها بلا شك كتاب عولس ولا سيما أن محاكمة كيز منت كانت حدثاً عالمياً ، وكان دفاعه البليغ المجيد وثيقة إنسانية كأن هذا البطل استلهمها فى دفاع سقراط عن نفسه .

كان كتاب عولس يتسع لهذه المحاكمة التاريخية المجيدة ، كما اتسع لغيرها من الحوادث الرهيبة والواقعات التفهة أو الجليلة كوصف جريمة بستان العنقاء (فينكس بارك) وهى جريمة سياسية، اغتيل فيها حاكم ايرلاندا ووزيره الانجليزيان، وكما اتسع لوصف إعدام أحد المذنبين إعداماً علنياً فى دبلين ، وهاتان الواقعتان سابقتان على الحرب .

أما الحرب نفسها فليس فى أدب جويس أى صدى لذكرها وهو الذى عاش فى أتونها واكتوى بنارها على أيدى الحكام والقناصل والسفراء ومفتشى الجمارك والجواسيس والشرطة

السرية من الانجليز ، ولكن روح جويس لم تكتو بنارها ، وقد عاش وزوجته وأولاده بين قصف المدافع ورعد القنابل متنقلاً بين العواصم والثغور ، حاملاً عبء فاقته واضطراره وإملاقه ، قانعاً بما قرأ ووعى قديماً وحديثاً ، معرضاً عن الدعاية فى الكتب والمجلات والصحف ولم يكن لها سوى حديث الحرب ، بل أخذ يكتب ويدرس ويصقل نفسه ، وينتقى ألفاظه ، ويركب جمله ، ويبنى كتبه ، وينقى أسلوبه ، ويترقى فيه ، ويتبع خطة التطور الزمنى والعقلى ، وكأنه يعيش على قشرة كوكب آخر غير الكوكب الأرضى .

فأى رجل هذا الضخم الفخم ! الذى عزل نفسه ، واصطنع لها مناعة ورقابة وحجابا حاجزاً ، حتى لا يصل اليها ما يعطل حركة تفكيره أو يحول وجهته التى هو موليها ، ألم نقل إنه أراد الفرار بمواهبه الى بيئة تمكنه من النمو ووعد نفسه بالنجاة ووفى بوعده ونال أمنيته ؟

فلم يستهوه خبر غريب ، ولا حادث طريف ولا دعاية مغرضة، وأى إخلاص للفن مثل هذا الإخلاص قديماً وحديثاً ، بل أين منه المشعوذون الأفاكون الذين اشتهروا فى هذه الفترة التعسة من الزمن وفى بلاد كثيرة شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً ، والذين استغلوا

أحط الشهوات ليجلبوا لأنفسهم الصيت البعيد والغنى الوافر والأرباح المحرمة أمثال هوكسلى ولورنس واليوت وبرنارد شو ، ولم ينج من دائهم إلا واحد وحسب وهو هـ ٠ ج ٠ ولز مازال معجباً بجويس ومثنياً عليه ومدركاً أدبه ومقدراً عبقريته حق قدرها ، حتى وافته منيته بعد جويس ببضع سنين.

إذن كان جويس كاتباً اهتدى بإرادة الله ثم بهمته الى ذاته العظمى ومواهبه الجلى ، وكان مغامراً جباراً جليل القدر ، وكان مكافحاً مناضلاً مجاهداً ، وكان جواب آفاق مستنفضاً ، فلم يخش على حياته وحياة أسرته سوء المغبة أو أخطار الاغتراب ، ولم يخف على أسلوبه ومنهجه من الموت أو الاندثار ، فأرسلهما في كتبه، ولا سيما عولس فى العالم الغربى ، غير مبال بنواطير النقد ، ولا نواطير الأدب ، ولا حسب حساباً لمن صدئت عقولهم ، لنومتهم الذليلة فى كهوف التقاليد ، ورقدتهم الطويلة فى أقبية النفاق .

فصار جويس أستاذ الجيل ، كما كان أستاذاً إبان فتوته فى مدرسة أولية فى وطنه ، وكما صار أستاذاً للغة الانجليزية فى ايطاليا بسبيل القوت ، فآتاه الله قوة الابتكار ومنحه نعمة الإبداع والتصوير والنقد والتحليل ، فعبر عن أفكاره الطريفة بأسلوب بارع

نادر ، فهو مخترع أبداً ، يناقش ويجادل ويفاجىء ، فإذا القديم حديث ، واذا الحديث نفيس ، ولم يفته أصل من الأصول الفنية كأنه من رواد الكشف الجغرافى ، خاطروا بأعمارهم وأرزاقهم ورحلوا فتعبوا فى البر والبحر الى أن أشرفوا على الهلاك حتى اذا استيأسوا ، اهتدوا الى قارة جديدة أو جزيرة غنية بالكنوز أو نهر عظيم له أودية ذات زروع وجزوع ، ومنابع فوارة فياضة ، وضفاف كريمة ملآنة بالخيرات والخصوبة ، فأورثهم الله ثواباً على جهادهم واجتهادهم وشقوتهم فى رحلتهم تلك الكنوز الزاخرة والثروات المتوافرة ، فاستغنوا وخلفوا لقومهم وآلهم تراثاً كريماً وعزاً مقيماً ورزقاً غريضاً وجاهاً عريضاً .

قيل إنه ترسم فى اسم عولس وموضوعه وحوادثه ، خطوات المعلم القديم الشاعر الكبير هوميروس الاغريقى ناظم الإلياذة والأوديسة ، وما الأوديسة إلا مكملة لتاريخ أحد أبطال حرب طروادة لأنها سرد مغامرات عولس أحد أبطال طروادة أثناء عودته الى وطنه اتيكا ، ومحاولة ابنه تليماخوس البحث عنه واستقصاء أخباره وتتبع خطاه ، ليسعف أمه بنلوب وينقذها من مخالب الأوغاد الطامعين والزعماء المتزاحمين على زوجها وعلى عرش رجلها الغائب

وهو والد ولدها .

أى نعم بلى ! هذه هى الحقيقة ، وهذا هو الفن العريق ، فالماضى السحيق للفنان الصادق هو الفردوس المفقود ، لايهدأ له بال حتى يصير الفردوس المردود أو المكسوب من جديد .

ولكن حذار يا أخى ويا ابن عمى ويا ولدى ، ولا أقول يا معلمى ، ولا يا أبى، فليس للفن الصحيح معلمون ولا رؤساء ولا أساتذة ولا آباء ! دع عنك لومى وعتابى فى هذا المقام العلوى ! ولا تقيّد علىّ ما أقوله فى ساعة سكر أو فى شطحة مخمور سكران بخمر الجمال والإبداع ! ولذا أكتب لك ما أشعر به نحو الفن الجديد، فاسمع جيدا هذه الألفاظ ، فهى قانون الفن الأول الأبدى الأزلى الخالد .

فاخلع نعليك وألق بثوب التقاليد ، كما كان الحجيج يرمون ثيابهم التى تلاصق أبدانهم ، فتسمى باللقى ، ليقبلوا على الرب ، عرايا مجردين ، كالحقيقة التى يدنون منها ، وهى عارية .

لقد جاء هذا الكاتب الماجد الخالد فى زمن كثر فيه التشريق وتقديد اللحوم ، فأنف القديد ووجّه العالم نحو الطعام الغض والفاكهة الناضرة والى خبز التنور ! يوم كان أمثال لورنس

وهكسلى وشو وأضرابهم يتهافتون على فتات الموائد ، وقشاش السفر ! ويقولون « كل من سار على الدرب وصل » !

وحدة الزمان ووحدة المكان ووحدة العمل ، تلك القاعدة الذهبية الأولى التى اكتشفها سوفوكليس وهوميروس وايشيلوس فى الدرامة الانسانية ، أقول اكتشفها، ولا أقول ابتكرها أو وضعها أو بدعها لأنها أزلية أبدية ، وقد كشفها جويس فى وقته وأوانه بعد تمام نضجه ، وبعد تدريبه عشرة أعوام من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩١٤.

وكما كان هو ميروس عظيماً فى الإلياذة ، وأعظم منه فى الأوديسة ، كذلك كان جويس عظيماً فى مؤلفاته السابقة ، وأعظم منه فى عولس ، فلا يترك فى القارىء شعوراً لا يتحرك ولا حاسة لا تجيش ولا عصباً لايهتز ، ولا عرقاً لاينبض، ولا قلباً لايخفق ولا عاطفة لا تتأثر ، ولا نقطة دم لا تغلى .

وجاهل من ظهر جاهل ، سواء أكان فى الشرق أم فى الغرب، من يزعم أن عولس ليس كتاباً كاملا ، رعى فيه مؤلفه تسلسل الزمان ووحدته على قصره ، ووحدة المكان على ضيقه وحصره ، والتتابع المنطقى فى الأقوال والأفعال والحوادث

والواقعات ، بل إن من يقول بهذا أعمى ، وأعمى منه وأضل سبيلا من يقلده قبل أن يقرأ تلك الملحمة الكبرى قراءة درس وفحص وتمحيص ، تلك الملحمة التى دون جويس فيها أدبه وفنه فى أكثر من ربع مليون كلمة ، بل على التدقيق ٢٦٠٤٢٠ كلمة كتبت بأسلوب جديد وطريقة جديدة ومنهج لم يسبقه اليه أحد من القدماء أو المحدثين دون أن يلجأ الى ما لجأ إليه شكسبير من التشبيه والاستعارة والترشيح ومحسنات البديع والبيان ، ودون أن ينحت الألفاظ ويصقلها كما فعل كورنى وراسين ، أو يخضعها للأوزان الموسيقية كما صنع فيرلين وبودلير ، ودون أن يقنع بالبساطة التى لا تقاس كما كتب أناتول فرانس ، أو يعمد للتعقيد الذى لاذ به بروست ، أو التكرار والإسهاب كما فعل رابليه وارث المترادف والمتوارد ، لأن انشغال باله بالجمال والحق وهجسه بهما فى جوهرهما ليلاً ونهاراً ، خلع هذا الرداء الفنى على كل ما خطه قلمه فى هذا الكتاب ، فهو معلم العصر وأستاذ نقد فك القيود وحرر الأذهان من عبودية القديم ، فهوت أوثان الأدب العتيق عن عرش مجدها ، كما هوت الأوثان المعبودة فى مخدعها يوم جاء الحق ، ولكن وضع لتقديس القديم حداً ، وقد خدمه أنه كان شاعراً يتهافت

منذ حداثته على النظم ، من قبل أن يتعلم شيئاً مما يلزم لهذه الصنعة ، مع يقينه أن الشعراء أفضل الناس، وأن الشعر أجل ما يتعاطاه الانسان ، أليس هو الذى التقى ذات مرة بالشاعر الايرلندى الكبير و٠د٠ب ييتس فقال « لقد التقينا بعد أن فات الآوان ، فقد تقدم بك السن ومحال أن تتأثر بأدبى » ، وقال أيضا إنما أنا شاعر لقد نظمت أفضل قصيدة غنائية Sonnet منذ شكسبير ، يشير الى رثاء بارنل الذى نظمه ونشره فى كتاب « أهل دبلين » بعنوان « وفاة بارنل » فى ٦ أكتوبر سنة ١٨٩١ ومطلعه «لقد مات ! مات ملكنا غير المتوج !» .

وهناك من يعللون هذه الهنات بالصلف والكبرياء والغرور ، ولكننى أعللها بالاعتزاز بالنفس ، والتسامى البرىء ، وكلاهما ضرورة للفنان فى أول عهده ، حتى إذا نضج وبلغ أشده ، خجل من ذكر نفسه وتواضع للسابقين والمعاصرين .

ونقول إن شاعرية جويس كانت قوية جداً ، وقريحته كانت أغزر القرائح الوقادة إنتاجاً ، ولو شاء أن يرتجل الشعر لاستطاع ، ولذا نعجب ممن قال « إن عولس ملحمة ، والملاحم لاتكتب نثراً»، والشعر جوهر لا عرض وموضوع لا شكل ومعنى لا لفظ ، فلا داع

للرد على ناقد لايعرف هذا القول البدائى وهو أن الشعر لايقيد بالوزن والقافيه وحدهما .

إنى أتألم وأتحسر لأنى أكتب بالعربية عن كاتب ناثر عرفاً وحكماً وكتابه باللغة الانجليزية . وليس كل قرائى يتقنون تلك اللغة السكسونية ، ولذا حرمت الاقتباس والاستشهاد وضرب الأمثال ليطرب بها القارىء ، فيما لو كنت أكتب عن كاتب عربى ، ولكن غيرتى على من لايصلون الى لذة الإلمام بهذا الفن الرائع ، ورغبتى فى التعريف بهذا الكاتب الفذ أمام لغته فى جيله ، وهو من كتب له الخلود الى الأبد حتى قال آرثور سيموندز « عندما تبيد كل الكتب الموضوعة بالانجليزية ستبقى ثلاث كتب على وجه الدهر وهى : الكتاب المقدس ، ومسرحيات شكسبير ، وكتاب عولس » أى يوليسيز لجيمس جويس ، فعز علىّ أن لايعرف قراء العربية ذلك الفن وتلك القدرة العجيبة لرجل من جنس قضى فى ذل العبودية سبعة قرون ، فنهض وتحرر وفك القيود وحطم الأغلال ، وأبق من وطنه كما يأبق الأسير والرقيق ، وأقام صرحاً من لغة عدوه ، وابتدع فناً رفيعاً جديداً ، أظهره على كل كتاب عصره، ولا سيما الانجليز منهم ، ونال من أعدائه بالقلم مالم ينله سواه بالسيف

والرمح ، فكان مجاهداً ومحارباً بما وهبه الله من عدة ، فأعد لأهل الجزيرة الجائرة المجاورة ما استطاع من قوة ، وقلم ومداد وقراطيس تفوق القلاع والحصون وتتغلب عليها ، فضرب مثلا وحيداً فى تاريخ الجهاد بالعقل والقلب والبلاغة ، وصار هذا الفتى النحيف المديد القامة الضعيف البنية ، عملاقاً جباراً لا يطاق ، وأرغم الرؤوس الشامخة على أن تطأطىء أمام عظمته ، وهكذا يكون حب الوطن ، وقد استجاب الإله دعوته الصامتة المقرونة بالصبر الطويل ، والعمل الدائم ، والرضى بالفقر والجوع والفلاكة ، فكافأه بنهضة وطنه وتحرره واستقلاله .

فهذه الجمهورية الأيرلندية الحرة ، هذه الجزيرة الزمردية الخضراء التى أحالها الاحتلال الأجنبى أرضاً جرداء ووديانا قاحلة جدباء ، وتلك الأمة التى هاجرت كثرتها الغالبة الى امريكا فى طلب الرزق وفراراً من الاستبداد ، استعادت شبابها ونضرتها ، فعسى ولعل يكون فى هذه المثل ثمرة للأمم المقهورة التى لايملك أصحابها سلاحاً ولا قنابل ذرية ولا دبابات ولا مدافع بعيدة المدى ، فلا تيأس من رحمة الله إن رزقها الله رجالاً أمثال جيمس جويس .